منهج الإمام سيدي الهواري في الإصلاح والدعوة في مدينة وهران

Approach of Imam Sidi El Houari in reform and advocacy in the city of Oran

العيدية حمزة*

جامعة وهران 1 (الجزائر)،

ملخص:

مما لا شك فيه أن الشيخ الإمام سيدي الهواري رحمه الله تعالى من أبرز الشخصيات التي شهد لها التاريخ بالإصلاح والنبوغ والدعوة إلى الحق، ويكفيه فخرا أن اسمه صار لصيقا بمدينة وهران وذاكرة الوهرانيين وأكثر من ذلك أنهم يتبركون بتسمية مواليدهم باسمه –الهواري–. ولكن ما يؤسف له أن تاريخه العلمي والإصلاحي والدعوي مجهول في ذاكرة معظم أهل وهران بصفة خاصة والشعب الجزائري بصفة عامة فإذا سألتهم عنه لا تتجاوز الإجابة بأنه ولي صالح له الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة، والحقيقة أن علماء وهران أكثر من أن يأتي عليهم العد أو يشملهم الحد، لهذا صار لزاما رفع الستار ونفض الغبار عن مثل هذه الشخصيات التي تركت بصمات وأن نحفل بهم ونقدرهم حق قدرهم، وما فعلوا من خير إلا ابتغاء مرضاة الله تعالى، وما خطر ببالهم أن تصنف لهم مدونات أو تقام لهم ندوات وملتقيات.

الكلمات المفتاحية: الهواري ؛ التصوف ؛ الرحلة؛ المغرب الأوسط، المشرق

Abstract:

There is no doubt that Sheikh Imam Sidi El-Hawari, may God Almighty have mercy on him, is one of the most prominent figures in history who have witnessed reform, ingenuity and calling for the truth. But what is regrettable to him is that his scientific, reformist and advocacy history is unknown in the memory of most of the people of Oran in particular, and the Algerian people in general. That is why it became imperative to raise the curtain and dust off such personalities that left fingerprints and to celebrate them and appreciate them in the right of their

*المؤلف المرسل

destiny, and they did no good except seeking the pleasure of God Almighty, and it did not occur to them to classify blogs for them or hold seminars and forums for them.

مقدمة:

مما لا شك فيه أن الشيخ الإمام سيدي الهواري رحمه الله تعالى من أبرز الشخصيات التي شهد لها التاريخ بالإصلاح والنبوغ والدعوة إلى الحق، ويكفيه فخرا أن اسمه صار لصيقا بمدينة وهران وذاكرة الوهرانيين وأكثر من ذلك أنهم يتبركون بتسمية مواليدهم باسمه –الهواري–.

ولكن ما يؤسف له أن تاريخه العلمي والإصلاحي والدعوي مجهول في ذاكرة معظم أهل وهران بصفة خاصة والشعب الجزائري بصفة عامة فإذا سألتهم عنه لا تتجاوز الإجابة بأنه ولي صالح له الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة، والحقيقة أن علماء وهران أكثر من أن يأتي عليهم العد أو يشملهم الحد، لهذا صار لزاما رفع الستار ونفض الغبار عن مثل هذه الشخصيات التي تركت بصمات وأن نحفل بهم ونقدرهم حق قدرهم، وما فعلوا من خير إلا ابتغاء مرضاة الله تعالى، وما خطر ببالهم أن تصنف لهم مدونات أو تقام لهم ندوات وملتقيات.

فمن تكون هذه الشخصية؟ وما قيمتها العلمية والتاريخية؟

الفقيه المالكي المتصوف عالي الشهرة في المغرب الولي الصالح العارف بالله قطب وهران الذي عليه مدارها وبدارها الذي أحجل الأقمار المتزايدة أبدارها ومطأطئ الأعناق الرفيع المقدار والرؤوس العلية أقدارها، سيدي أبا عبد الله محمد بن أعمر بن عثمان بن منيع بن عياشة بن عكاشة بن سيد الناس بن أمين الغياري المغراوي المشهور بالهواري.

والهواري نسبة إلى الهوارة أحد طوائف البربر وأعمدة نسبها،سموا بجدهم هوار بن أوريغ بن برنس بن بربر، والمغراوي نسبة إلى مغراوة قبيلة من زناتة وهذه الأخيرة من البربر.

ويظهر من خلال هذا الانتماء تناقض في النسب –الهواري المغراوي– إلا أن أهل التحقيق أظهروا السبب ورفعوا اللبس وذلك بانتمائه الوطني والآخر الأصلي.[1]

ويرى بعض المؤرخين أن أصله يعود إلى قبيلة مغراوة وتربى في هوارة، في حين يذهب الباحث يحي بوعزيز—رحمه الله تعالى- إلى أنه ولد بهوارة في أحواز كلميتو على بعد عشرين كلم شرق مدينة مستغانم.[2]

ويذكر ابن صعد أنه انتقل إلى بلدة كلميتو بعد بلوغه العاشرة من عمره. [3]

نشأته ومشواره العلمي:

ختم القرآن الكريم قبل تمام العاشرة من عمره، حمل هذه الأمانة العظمى على يد شيخه علي بن عيسى، ثم خرج من قبيلته متجها إلى كلميتو،كان ممن يواظب على مجالس الذكر والحلقات العلمية عند السادة الشيوخ ويسألهم الدعاء.

فاستجاب الله تعالى الدعاء، وكانت نقطة الانطلاقة العلمية في حاضرة بجاية وهي معلم من معالم العلوم الدينية والدنيوية في ذلك الوقت، فتتلمذ على أيدي علمائها منهم سيدي عبد الرحمن الوغليسي، والسيد أحمد بن إدريس، ثم حفظ المدونة البراذعية، ولما بلغ منها -باب الصيد- سافر إلى فاس حاضرة العلوم، فأتمّ فيها حفظ المدونة سنة776هـ وهو ابن خمس وعشرين سنة،وأخذ بقية العلوم عن موسى بن محمد بن معطي العبدوسي(ت776) وأحمد بن القاسم بن عبد الرحمن القباب (ت778).[4]

ويؤتي الدعاء ثمره إذ أصبح طلبة فاس يقرؤون عليه القرآن واللغة العربية والفقه ويتشوقون لسماع قراءته لكتاب الله تعالى.

وبعد هذه الجولة العلمية والتحصيل المعرفي شدّ الرحال نحو بلاد المشرق لأداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة، وكطالب علم يسعى للاستزادة مختلف العلوم فجاور الحرمين الشريفين مدة ثم انتقل إلى بيت المقدس وصلى به، فكمل له فضل الصلاة في المساجد الثلاث.[5]

وكطبيعة طالب العلم الذي لا يشبع من الاضطلاع والمعرفة والسياحة بغية المزيد من العلم عاود محمد بن أعمر الهواري نشاطه العلمي في فن خاص من الفنون الجليلة وهو علم التصوف، فأول ما استقر في مصر مدة للقراءة والإقراء وظل يتردد على مجالس العلماء، فكان من بين الذين اجتمع بهم وأخذ عنهم

الحافظ العراقي(725هـ-806هـ)، وكان معجبا به فاقتدى بأخلاقه وتأسى بعاداته النبيلة،كما التقى بالقرافي.[6]

وبعد ذلك توجه إلى بلاد الشام وأقام بالجامع الأموي مدة وبعدها استقر به الميعاد إلى مدينة وهران[7] من بلاد المغرب الأوسط.

استقرار الإمام سيدي الهواري بالمدينة ومنهجه في الإصلاح والدعوة:

استقر الحال بمحمد بن أعمر الهواري بوهران بعدما جال المشرق والمغرب، ولعل السؤال الذي يطرح نفسه وهو لماذا اختار الإمام الهواري هذه المدينة عن غيرها أو بالأحرى عن مسقط رأسه؟

التحقيق التاريخي يجيب عن هذا التساؤل، وهو أن مدينة وهران كانت بعيدة عن أنظار الحكام والملوك هذا من جهة ومن جهة أخرى أنها لم تكن في مواكبة الحواضر العلمية المجاورة لها إضافة إلى أنها كانت ذات طبع وطابع خاص.

كما كان للنشاط العمراني والبشري الذي عرفته المدينة خاصة من جراء الهجرة الأندلسية إليها باعثا لاستقرار الإمام الهواري بها[8]، فكان يرى في خلجات نفسه أن رسالة تنتظره في وهران.

وباستقراره في وهران وتأسيسه للزاوية تعددت نشاطات الإمام الهواري، فكان يدرس فيها مختلف العلوم الدينية ويلقي دروسا في الوعظ والإرشاد ويدعو الناس إلى التوبة والعمل الصالح والزهد في ملذات الدنيا، كان من الذين باعوا أنفسهم من ربّهم بتقواه وأفنى ذاته في محبته فرفعه ورقاه واستسقى منه أمطار المواهب والمعارف فسقاه فجمع بين العلم والعمل وأكمل له بما خصّه من ولايته القصد والأمل، عرف بكثرة صيامه وقيامه وجوده، ومحبته للآل البيت النبوي ومحافظته على حدود الشريعة وابتعاده عن الملوك والأمراء وتصديه للظالمين والوقوف لهم بما أتاه الله من هيبة ووقار.[9]

ويروى أن له الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة[10]،هذه طبيعة من تربى على مائدة القرآن وتخلّق بمن كان خلقه القرآن، فاجتمعت كلمة المحققين أنه كان ممن أتاه الله تعالى الحكم صبيا وهداه إلى طريق الولاية.

وأكثر الكتاب الفرنسيون من التحبير له منهم الكاتب –رنيه باسيه– وقال أحدهم عنه أنه كان يقرأ الأفكار فيحدث كلا بما في نفسه.[11]

فانتفع أهل وهران بعلمه وأصلح الله تعالى به شأنهم وكان يحضر مجالسه أكابر العلماء ويتشوقون إليها خاصة عندما يعضل عليهم بعض النوازل ويعجزون عن حلّها فيخاطب الجميع بلغة واحدة ويفهم كل حاضر أن الكلام موجه إليه ويجيب عن حاجتهم دون سابق سؤال.

تميّز منهجه في الوعظ والإرشاد بازدواجية أسلوب الترغيب والترهيب، فإذا عجّ مجلسه بأرباب المال والأثرياء استخدم أسلوب الترهيب وذكرهم بالأمم السابقة وطغيانها وبطش الله تعالى بها، وإذا كان الحاضرون الفقراء والضعفاء رغبهم في حسن الظن بالله تعالى والرجاء فيه، أما أهل الصحة والعافية فيذكرهم بشكر المنعم...

وهكذا كان مجلسه يدعو فيه الناس بمختلف شرائحهم الاجتماعية إلى التكافل والتضامن والوحدة، وهذا منهج من تخلّق بالأسوة الحسنة، كانت هذه صفات العارفين بالله تعالى التي رشحته بأن داع صيته خارج مدينة وهران فصار الناس يتهافتون على مجلسه ولم يلق معارضة من قبل فقهاء زمانه لاعتداله.

لكن طريق الدعوة لم يكن مفروشا بالبساط الأحمر والورد على حافتيه إنما كانت مهمته أصعب المهام خاصة في وهران وكسائر المدن تجد فيها الصلاح والفساد، الخير والشر وهذه طبيعة الكون وهو الصراع بين الحق والباطل، إلا أن وهران في زمن ساد فيها الفساد في البر والبحر وترك سكانها حكم الشريعة وصاروا يتحاكمون إلى العامة فآثروا العوائد المضلة ونبذوا الشريعة وألحقوا بأهلها الأذى.

فكان الإمام الهواري وأهله ممن نالتهم أيدي الغدر والخيانة حتى آذوه في ولده فقتلوه، فكان هذا الوقع كالصاعقة عليه، صبر واحتسب ودعا الله تعالى ،ويروى أن احتلال الإسبان لمدينة وهران كان لشدة حزنه ودعائه حتى أن تلميذه الشيخ إبراهيم التازي استوقفه...لكن هل يعقل أن رجلا في مكانة الإمام الهواري وما عرف عنه من صبر وورع وإيمانا بالقضاء والقدر يفعل مثل ذلك؟

وفاته:

تضاربت الأقوال حول تاريخ وفاة محمد بن أعمر الهواري لكن لم تتفق معظم المصادر التي أرخت لحياته أن وفاته كانت بوهران يوم السبت 02ربيع الآخر 843 هـ/1439م [12] عن عمر يناهز اثنتين وتسعين سنة على اعتبار تاريخ ولادته يعود إلى سنة751هـ في حين ذكر كل من صاحب الثغر الجماني وصاحب طلوع سعد السعود أن عمره ناهز اثنين وسبعين سنة.

وتؤكد الدلائل العلمية أن قبره موجود بمدينة وهران على خلاف بعض الإشاعات التي روجت لمدفنه بمناطق خارج مدينة وهران، وصارت وهران تعرف باسمه.

مؤلفاته:

قبل الشروع في بيان مؤلفات الإمام الهواري، هناك تهمة ألصقت بهذه الشخصية العلمية والمتمثلة في جهله باللغة العربية إذ أن مؤلفاته وردت بالدارجة —العامية– فإن المستوى الثقافي الذي وصل إليه عند الشيوخ الذين تتلمذ عليهم خاصة في بجاية وفاس وحواضر المشرق العربي والعلوم التي أحاط بها وحيازته على كرسي العلماء في فاس وتدريسه اللغة العربية لطلابها لحجة قوية على علمه بقواعد اللغة وفنونها إضافة إلى العلوم المختلفة التي درسها وأتقنها ففي الفقه كان يحفظ المصنفات التالية:

*–رسالة ابن أبي زيد القيرواني(ت386هـ) وشرحها للقاضي عبد الوهاب (362هـ–422هـ).

*–المدونة وتهذيب البراذعي (خلف بن أبي القاسم ت400هـ).

*–كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب.

*–كتاب جامع الأمهات لابن الحاجب(ت646هـ).

أما في التوحيد فكان يحفظ كتاب الإرشاد في علوم الاعتقاد لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني، ويذكر ابن صعد أنه كان يحفظ الشاطبية والألفية والعديد من الكراريس المشتملة على علوم القرآن رسما

ونحوا ولغة منها تفسير ابن عطية والتفسير الكبير للإمام فخر الدين بن الخطيب إلى جانب الإجازات التي حصل عليها من علماء المشرق العربي.

شخصية بمثل هذه المواصفات تجد فيها سمة العارفين بالله تعالى وهي سمة التواضع واحتقار المنزلة، فكان يستصغر علمه ولا يرضى بعمله.

ومما ترك من الثروة العلمية ما يلي:

*-" التسهيل "و "التبيان" و "تبصرة السائل".

*- منظومة غير معربة وقائمة الأوزان.

*- " السهو والتنبيه "[13].

وفي هذا المقام استدرك أبو زيد عبد الرحمن مقلاش سهو الشيخ الهواري فأصلح أشياء وزنا وإعرابا وأتى به إلى الشيخ وقال له: "يا سيدي إني أصلحت سهوك"،فلم يقبل منه ذلك وقال له: "هذا السهو يقال له سهو مقلاش وأما سهوي فهو سهو الفقراء يبقى على ما هو عليه إنما ينظر فيه إلى المعنى ومن أين لمحمد الهواري بالعربية والوزن"

وفي هذا قال ابن الأزرق على الجملة أنشد غير واحد:

لساني فصيح معرب في كلامه فيا ليته من وقفة العرض يسلم

أراه فصيحا في الحياة وإنما أخاف عليه في القيام يلّجم

وما ينفع الإعراب إن لم تكن تقي وما ضرّ ذا تقوى لسان معجّم[14]

الخاتمة:

بعد الوقوف على سيرة الولي الصالح سيدي محمد بن أعمر الهواري الجزائري وعرض أبرز فضائل هذا الشيخ وغرائبه وكراماته الباهرة وجهاده لنشل أهل وهران من تبعات التخلف والانحطاط الفكري والعلمي ومدى صبره على الأذى وانشراح صدره.

مثل هؤلاء الرجال تحتاج إليهم الأمة لتخليصها من أردان التخلف بحكمة وصبر وفطنة لمواجهة التيارات المختلفة والإيديولوجيات المتنوعة، هؤلاء يؤمنون أن الإصلاح واجب يستعدون له ويعملون له بإخلاص وصدق وأمانة، فالتغيير سنة الحياة ابتداء من الفرد فالمجتمع ولذلك خلق الإنسان، كما أن هذه الأمة تؤمن أن الله يبعث على رأس مئة كل سنة مجدد لأمر دينها.

الهوامش

1- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص 434.

2- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، بيروت، مط دار الغرب الإسلامي، ط1، ت1995م، ج2، ص.211

3- بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط-رسالة ماجستير-ص .184

4- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص .228

5-أبو رأس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته-حياة أبي رأس الناصري الذاتية والعلمية تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ت1990م، ص 36.

6-ليس القرافي الفقيه المالكي صاحب الفروق والذخيرة وإنما هو القرافي

7-أكبر مدن الجزائر الساحلية وتعتبر العاصمة الثانية.

8- بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط، ص 188.

9- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص 443.

10- الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص 69.

11- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1 ص .170

12- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص .228

13- خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط8، ت1989، ص314.

14- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء، ص229/ المزاري، طلع سعد السعود، ج1ص96.